

اللغة العربية و قدرتها على الإبداع و استيعاب العلوم و المعارف- دراسة في فكر البشير الإبراهيمي

الدكتور بشير فايد قسم التاريخ و الآثار جامعة سطيف-2 الجزائر.

bachir.faid@gmail.com

ملخص: منذ أن دخلت الأمة العربية، في دوامة التأخر الحضاري، و اللغة العربية تتهم من قبل شريحة من المفكرين و المثقفين و السياسيين، العرب و غير العرب، بالعجز و القصور، عن استيعاب المنجزات العلمية و الحضارية، التي تصنعها الأمم الأخرى. و الذين لا يترددون، في الدعوة إلى حصر استخدامها في نطاق ضيق، لا يتعدى دائرة التخاطب الشعبي. و في المقابل، يقترحون استبدالها بلغات الأمم القوية المعاصرة، المتمثلة في الإنجليزية و الفرنسية، اعتقادا منهم عن جهل أو قصد، أنها السبب الرئيس في التخلف.

و الشيخ البشير الإبراهيمي(1889م-1965م)، واحد من العلماء و المفكرين و المثقفين الجزائريين و العرب، الذين دافعوا في العديد من المناسبات، عن عظمة اللغة العربية و سموها، و مرونتها و حيويتها، و قدرتها على أن تكون لغة علم و فكر و إبداع و تواصل و تأثير، في كل الأوقات، تماما مثلما كان عليه الأمر في العصور الذهبية للحضارة العربية الإسلامية، مفندا تلك الآراء و الأطروحات، التي اعتبرها مزاعم تفتقد حسبه إلى الدقة و الموضوعية العلمية المطلوبتين، للوصول إلى أحكام بعيدة عن الخلفيات الفكرية و الأيديولوجية المسبقة، خصوصا في قضايا ثقافية حساسة مثل اللغة، التي اتفق على اعتبارها وعاء للفكر.

مقدمة: لا يخلو مقال أو محاضرة، أو مجلس علمي للشيخ البشير الإبراهيمي، من حديث أو إشارة إلى اللغة العربية، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، فلقد كانت هما قوما ثقافيا وحضاريا يؤرقه، كغيره من المثقفين العرب في تلك الأوقات، الذين استشعروا خطورة المد الثقافي القادم من وراء الحدود العربية، مستهدفا اللغة العربية باعتبارها: روح الأمة وحياتها. و- محور القومية و عمودها الفقري و من أهم مقوماتها و مشخصاتها¹.

لم يكن ينظر إلى اللغة، على أنها مجرد ألفاظ و عبارات، انتقلت من أجيال إلى أجيال و فقط، مثلما يذهب إليه البعض، و إنما تعبيراً عن الذات التي تفقد بوصولها إذا فقدتها. و هو ما يصطلح عليه حالياً بالهوية، التي يرتبط مفهومها بالمسألة الثقافية، التي تعد اللغة أدواتها الأولى، بحسب رأي الدكتور محمد العربي ولد خليفة².

سمح لنا إطلاعنا، على التراث الفكري و الأدبي للإبراهيمي، في هذا المضمون، إلى تصنيفه ضمن النخبة التي ناضلت، ليس من أجل أن تعيش اللغة العربية ما دامت هنالك حياة، عن طريق التداول و التخاطب فحسب، بل كوعاء ينضح بالفكر و الثقافة الإبداع و الحياة، فيصيب كل المجتمعات الإنسانية، بطعم تلك الثمار في كل زمان، وهذا هو المطلوب.

و عليه، فقد اجتهد الإبراهيمي، في التأكيد على قوة اللغة العربية، و قدرتها على نقل علوم الآخرين، دورها في تطور العلوم، الرد على ما اعتبره بعض المغالطات التي روجت و لا تزال تروج بشأنها إلى يومنا هذا، مع استشراف لمستقبلها الذي سيكون زاهرا برأيه إذا كانت اجتهادات الحاضر سليمة.

و في تعريفه لها، قال أنها لغة انشقت: ((من أصلها السامي في عصور متوغلة في القدم، و جرت في السنة هذه الأمة التي اجتمعت معها في مناسب المجد و أرومات³ الفخر، و شاء الله أن يكون ظهورها في تلك الجزيرة الجامعة بين صحو الجو و صفو الدو⁴ و المحبوبة بجمال الطبيعة و محاسن الفطرة لتتفتح أذهان عمار تلك الجزيرة عن روائع الحكمة مجلوة في معرض البيان بهذا اللسان. و في أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا

¹ محمد عابد الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: 2000م، ص97.

² أنظر محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية و قضايا اللسان و الهوية – دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان و الهوية و متطلبات الحداثة و الخصوصية و العولمة و العالمية، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات ثالة، الجزائر: 2003م، ص90.

³ الأرومات جمع أرومة: أصل الشيء/الحسب: هو شريف الأرومة/أصل الشجرة و ما يبقى منها في الأرض بعد قطعها. المنجد في اللغة و الأعلام، ط40، دار الشروق، بيروت: 2003م.

⁴ الدو و الدوية: البرية بتشديد الراء. المنجد في اللغة و الأعلام.

وعليها من رونقات و سمات. و في هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، و الوجدان أساس الحضارات و العلوم كلها))⁵.

فهي بذلك، لغة عريقة جذورها ضاربة، في التاريخ الإنساني و العربي القديم جدا، كان لها الفضل الكبير زيادة على بساطة البيئة و هدوئها، في تفجير الطاقات الذهنية و الوجدانية لأهلها، عبر العصور المتعاقبة. فبرعوا في كل فنون الشعر و الأدب و البلاغة و الحكمة، حتى قيل عنهم أنهم أمة الشعر و الفصاحة و البيان. و لم يتوقف الأمر عند ذلك، بل أقاموا حضارة عدت من الحضارات الفريدة في نوعها، حيث جمعت بين الماديات و الروحيات، في انسجام عجيب، مصدره الدين الإسلامي الحنيف، الذي ينظر إلى الإنسان باعتباره مادة و روحا.

و يرى الإبراهيمي، أن دور اللغة في الحضارات، أمر لا جدال فيه، فهي تعبر عن جوهرها و روحها و انجازاتها، تقوى و تزدهر و تنتشر بقوتها، و تضعف و تنتهقر و تتوقع بضعفها، و حينما تندثر لا نجد إلا اللغة التي تدلنا على أخبارها، فالعلاقة بينهما إذن علاقة عضوية و تلازمية: ((ازدهرت حضارات الأمم القديمة من العرب و فارس و الهند و الصين و مصر و اليونان و الرومان و زخرت علومها، و كانت كلها مبنية على أصول عامة متشابهة، و كانت لكل حضارة منها لغتها المعبرة عن محاسنها و الكاشفة عن حقائقها، و كان لتلك اللغات أثر بين في بقاء الحضارة و انتشارها، و كل من بقاء الحضارة و انتشارها يتوقف على ما في اللغة من قوة و حياة و اتساع، فاللغة من الحضارة جزء لا كالأجزاء، كاللسان من البدن عضو لا كالأعضاء، ثم اندثرت تلك المدنيات و العلوم إلا ما بقي من آثار الأولى منقوشا على الأحجار، و ما بقي من آثار الثانية مكتوبا في الأسفار، و لولا اللغات لم نتبين من الحضارات ما تبيناه))⁶.

1- قوة اللغة العربية و قدرتها على نقل علوم الآخرين: و اللغة العربية في تقدير البشير الإبراهيمي- دون شك - لغة مدنية و عمران، فلو لم تتميز باتساع أفاقها و ثرائها بالمفردات و التراكيب، لما تمكن العرب - المسلمون - من نقل العلوم اليونانية و الآداب الفارسية و الهندية، و لدفعتهم الحاجة لتلك العلوم إلى تعليم لغاتها، و لو قاموا بذلك لتحولوا إلى عرب عقولهم فارسية و أدمغتهم يونانية، فلو حدث ذلك لعرف مسار التاريخ الإسلامي تغيرا جذريا في كل

⁵ محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الأول (1929-1940)، جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1997م، ص374.

⁶ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص375.

مراحله. و يضيف، أنها لو لم تكن عالمية، لما شملت علوم العالم، الذي كان هو ذاته تلك الأمم التي نقل عنها المسلمون ما نقلوا⁷.

و إذا أردنا التلخيص، قلنا في جملة واحدة، أن العربية وفق ما جاء به، لغة حيوية امتلكت من الخصائص الذاتية، ما جعلها قادرة على الإبحار في ثقافات و معارف و علوم الأمم الراقية، من غير صعوبات و إشكالات، ثم استيعاب المهم و الضروري منها، لبناء مدنية خاصة، لا تكرر ما أنجزه الآخرون، و إنما تهذب و تطور ما وصلوا إليه من منتجات في شتى الميادين، و هي صفة تتمتع بها الأمم المبدعة لا المستهلكة.

ثلاثة أمور، استرعت انتباه البشير الإبراهيمي، في حركة الترجمة إلى اللغة العربية هي: السرعة قياسا بوسائل ذلك العصر، تنوع العلوم و المواد المترجمة، مستوى الوعي الذي أظهره النقلة العرب المسلمون: ((قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم و نظمها الاجتماعية و آدابها فوعت الفلاسفة بجميع فروعها، و الرياضيات بجميع أصنافها، و الطب و الهندسة و الآداب و الاجتماع، و هذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة و الحاضرة، و هذا هو التراث العقلي المشاع الذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأول، و هذا هو الجزء الضروري من الحياة الذي إما أن تنتقله إليك فيكون قوة فيك، و إما أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك. و قد تظن أسلافنا لهذه الدقيقة فنقلوا العلم و لم ينتقلوا إليه))⁸.

نكتشف تلك المقدره الفائقة للغة العربية على الاستيعاب، حينما نعلم أنها تعاملت مع ثلاث ثقافات متباينة في وقت واحد: الفارسية⁹، الهندية¹⁰، اليونانية¹¹. و بطبيعة الحال، لا يمكن أن نغفل دور الخلفاء في هذا النجاح العلمي و الثقافي و الفكري، الذين عرف عنهم شغفهم العظيم بالكتب، خاصة المتصلة بمواضيع الهندسة و الطب و الفلك و الفلسفة ففي ذلك، قالت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه¹² أنه قد جرى في العادة أن تطلب الدولة المنتصرة في

⁷ المصدر نفسه، ص372.

⁸ المصدر نفسه، ص372.

⁹ أنظر أحمد أمين: ضحى الإسلام، الجزء الأول، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت، دت، ص164 و ما بعدها.

¹⁰ المرجع نفسه، ص229 و ما بعدها.

¹¹ المرجع نفسه، ص253 و ما بعدها.

¹² زيغريد هونكه: دكتورة و مستشرقة ألمانية، ذائعة الصيت، أحببت العرب و ما زالت، و صرفت وقتها كله للدفاع عن تراثهم و قضاياهم، و هي زوجة الدكتور شولتز، المستشرق الألماني الكبير الذي اشتهر أيضا بصداقته للعرب. و كتابها شمس العرب تسطع على الغرب، هو ثمرة سنين طويلة من الدراسة الموضوعية العميقة، التي تسلط الأضواء عل ما للتراث العربي من فضل في نهضة الغرب العلمية و الحضارية. و قد كان ظهور هذا الكتاب، حدثا كبيرا في ألمانيا و

الحرب من الدولة المنهزمة، أن تسلمها ما لديها من أسلحة و ذخيرة و سفن حربية مقابل توقيع معاهدة الصلح بينهما، لكن الذي حدث كان العكس مع الخليفة العباسي هارون الرشيد¹³ بعد انتصاراته في عموريا¹⁴ و أنقرة، حيث طالب بتسليمه المخطوطات اليونانية بدلا عن الأسلحة و الشيء نفسه فعله المأمون¹⁵، لما انتصر على الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث¹⁶.

تضيف هونكة: ((و الواقع إن الأمراء العرب كانوا و كأنهم مجانين في سبيل الحصول على بردية أو مخطوطة مكتوبة على الرق. فما من شيء يكسب صداقتهم مثل الحصول على بعض المخطوطات القديمة، و عن طريق هذه المخطوطات يستطيع مرسلها أن يتخذهم حلفاء في حروبه ضد خصومه.. كذلك كان الأمراء شغوفين بالحصول على المترجمين الذين يترجمون لهم هذه المخطوطات كما سار في ركب الأمراء كذلك الوزراء و الأثرياء. و كانوا يدفعون الأموال الطائلة لأولئك الذين يتجولون لهم من العلماء و الوسطاء في بلاد اليونان و الأناضول و حيث الهلينيون¹⁷ للحصول على بقايا التراث العقلي هذه البقايا التي نجت من التدمير))¹⁸.

إذن، كانت الترجمة و جمع نفائس العلم و الفكر، هواية ثم فعلا يستهويان حتى أبناء الطبقات الثرية، الذين من المفترض أن يستثمروا أموالهم في المشاريع التجارية و الصناعية، و ليس في البحث و التنقيب عن تراث الغير، الذي لا يفهمون لغته و لا يفيدهم في تنمية ثروتهم و

أوروبا، فعلقت عليه مئات الصحف و المجلات و نال قسطا عظيما من الرواج، حتى أعيد طبعه إلى عدة لغات أجنبية. زيغريد هونكة: شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فؤاد حسنين علي، د ط، دار البعث، قسنطينة، الجزائر: 1986م.
¹³ **هارون الرشيد**: الخليفة العباسي (786م-809م)، من أشهر الخلفاء العباسيين، ابن المهدي و الخيزران، ولد بالري، تولى بعد اغتيال أخيه الهادي، حارب البيزنطيين و هو لا يزال حاكما على المقاطعات الغربية و بلغ أبواب القسطنطينية. أقر الأمن في المقاطعات الفارسية و ولى الأغالية في شمالي أفريقيا. قامت علاقات بينه و بين شارلمان ملك الفرنج، ازدهرت في عهده التجارة و الأدب و العلوم و لعب البرامكة دورا هاما قبل أن ينكبهم، قبره في طوس. **المنجد في اللغة و الإعلام**.
¹⁴ **عموريا**: مدينة بيزنطية في آسيا الوسطى، فتحها الأقباط قائد المعتصم في معركة مشهورة سنة 838م، اندثرت.
¹⁵ **المأمون**: عبد الله بن هارون الرشيد (786م-833م)، الخليفة العباسي السابع (813م)، من كبار الخلفاء العباسيين، أمه جارية عباسية، قتل أخاه الأمين و خلفه، عني بالأداب و العلوم و أنشأ بيت الحكمة في بغداد فازدهرت في عهده حركة الترجمة و النقل. ناصر المعتزلة، و امتحن الناس في خلق القرآن، فعرف هذا الامتحان بالمحنة، خلفه أخوه المعتصم. **المنجد في اللغة و الإعلام**.

¹⁶ **ميخائيل الثالث**: السكير (839م-867م)، نظم حملات ضد العرب، اهتم بتنصير البلغار، عين فوتيوس بطريركا مكان إغناطيوس فكانت بداية الانقسام بين كنيسة الشرق و الغرب. **المنجد في اللغة و الإعلام**.
¹⁷ **الهلينيون**: نسبة إلى الحضارة الهلينية، التي كانت مزيجا من الحضارات الإغريقية و الآسيوية، قبلها الرومان لأنفسهم فتحولوا من برايرة متوحشين إلى قوم متمدنين، في عهدها عرف اليونان تركيز الحياة في المدينة و ازدياد الحركة و الانتقال و ديانات التصوف و اعتناق الديانات الأجنبية مثل الآلهة المصرية ايزيس و الإله ميثراس، ازدهرت خلالها الفلسفات اليونانية بشكل عام و الأبيقورية و الرواقية بشكل خاص، فضلا عن الفن و الأدب. للمزيد أنظر رالف لنتون: **شجرة الحضارة**، ج2، د ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر: 1996م، ص353 و ما بعدها. و أنظر أيضا بيار غريمال و آخرون: **موسوعة تاريخ أوروبا العام**، الجزء الأول (أوروبا من العصور القديمة و حتى بداية القرن الرابع عشر)، ترجمة أنطوان أ الهاشم، ط1، منشورات عويدات بيروت-باريس، 1996م، ص147 و ما بعدها.
¹⁸ زيغريد هونكة، المرجع نفسه، ص280 و ما بعدها.

هي ميزة ربما انفردت بها الحضارة العربية الإسلامية، التي شارك في بنائها المثقفون و الحكام و أرباب الأموال على حد سواء، و تجربة ناجحة تحتاج الأمة العربية في ظروفها الحالية، إلى استلهام الدروس و العبر منها، حتى تضع قطار النهضة العلمية و الثقافية على سكتة الصحيحة.

مع مرور الزمن، أصبحت الحاجة ماسة إلى ضبط العملية، فما هو الجاحظ¹⁹ الذي عاش في القرن التاسع الميلادي، يجتهد بوضع جملة من الشروط المفترض أن تتوفر في المترجم: ((...و لا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، و ينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة و المنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء و غاية، و متى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، و تأخذ منها، و تعترض عليها، و كيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ، و إنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استقرت تلك القوة عليها، و كذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات، و كلما كان الباب من العلم أعمس و أضيق، و العلماء به أقل، كان أشد على المترجم و أجدر أن يخطئ فيه، و لن تجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء...)).

ثم قال: ((إن الترجمان لا يؤدي أبدا قول الحكيم على خصائص معانيه حقائق مذاهبه و دقائق اختصاراته و خفيات حدوده، و لا يقدر أن يوفيهما حقوقها و يؤدي الأمانة فيها، و يقوم بما يلزم الوكيل، و يجب على الجريء، و كيف يقدر على أدائها و تسليم معانيها و الإخبار عنها على حقها و صدقها إلا أن يكون في العلم بمعانيها، و استعمال تصاريف، ألفاظها، و تأويلات مخارجها، مثل مؤلف الكتاب و واضعه، فمتى كان ابن البطريق²⁰، و ابن ناعمة²¹، و ابن قرّة²² و ابن فهريز²³، و تيفيل²⁴ و ابن وهيلي، و ابن المقفع²⁵ مثل ارسطاطاليس²⁶ و متى كان خالد مثل أفلاطون²⁷)).²⁸

¹⁹ **الجاحظ**: أبو عثمان (نحو 775م-868م)، من أئمة الأدب العباسي، ولد في البصرة، نسبت إليه الجاحظية من فرق المعتزلة. صاحب ملاحظة دقيقة و روح مرحة فكهة و قلم رشيق. صور أحوال عصره و حياة أهل زمانه و أخلاقهم و عاداتهم تصويرا يمتزج فيه الجد بالدعابة من مؤلفاته الكثيرة: البيان و التبيين، البخلاء، التاج.

²⁰ **ابن البطريق سعيد** (847م-940م): بطريريك و طبيب نصراني ولد و أقام في فسطاط مصر، كان عالما بصناعة الطب، علما و عملا، فصار متقدما و مشهورا في زمانه، و كانت له دراية بالجدل و مذاهب النصارى و تاريخ الخلفاء و الملوك عامة و تاريخ رؤساء الكنيسة خاصة للمزيد أنظر ابن أبي أصيبعة: **الأنباء في طبقات الأطباء**، مكتب الحياة، بيروت. أيضا لويس شيخو: **علماء النصرانية في الإسلام (التراث العربي المسيحي)**، 1983م.

²¹ **ابن ناعمة ابن عبد المسيح بن عبد الله**: هو من الأطباء النقلة، الذين نقلوا كتب الطب و غيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، كان متوسط النقل و هو إلى الجودة أميل.

²² **تابت ابن قرّة بن مروان** (836م-901م): عالم عربي اشتهر بعمله في حقول الطب و الرياضيات و الهندسة و الموسيقى، ولد في بلدة حران التي تقع على ضفاف نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات في تركيا.

²³ **ابن فهريز**: هو حبيب أبو عبد يشوع بن فهريز.

تدل هذه الآراء، على المستوى الرفيع، و الإدراك و الفهم العميقين، اللذان كانا لدى الجاحظ و غيره في ذلك الوقت، بخصوص أهمية الترجمة، و أبعادها الثقافية و العلمية و الحضارية، مع التشدد فيها من خلال تزويد العامل في هذا الحقل الحساس جدا، بضوابط ملزمة لا غنى عليها حتى في عصرنا الحالي، لكي يتحقق المبتغى من العملية.

و مع ذلك، صادف المترجمون العرب القدامى، أثناء العصر الذهبي للغة العربية - العصر العباسي: ((مشكلات جمة في أداء المعاني الجديدة على اللغة العربية، أو إيجاد مقابلات للمصطلحات العلمية اليونانية التي لم تكن متطورة قبل ذلك الحين، فكان على المترجمين الأوائل استحداث هذه المصطلحات، و قد كونوا رصيذا هاما من المصطلحات العلمية و الفلسفية زودت اللغة العلمية آنذاك بأدوات كافية للتعبير))²⁹.

أكد البشير الإبراهيمي، على أن الكثير من العلوم، التي قامت عليها الحضارة الغربية، لم تصل إليها إلا عبر اللغة العربية، باعتراف الباحثين العرب و الغربيين على حد سواء. فالمنصفون من أبناء الغرب، يقرون بفضل هذه اللغة على العلم و المدنية، و لا ينظرون إليها إلا بنظرة التعظيم و الاحترام، يعترفون بأستاذية علماء المسلمين لهم في تلك العلوم، التي أخذوها عنهم و ترجموها عن لغتهم بل أنهم: ((يحمدون للدهر الذي هيا لهم مجاورة المسلمين بالأندلس و صقلية و شمال أفريقيا و ثغور الشام حتى أخذوا عنهم ما أخذوا و اقتبسوا عنهم ما اقتبسوا، و لا يزال هؤلاء المنصفون يذكرون فضل بعض معاهد الأندلس العربية و معاهد شمال أفريقيا و معاهد الشام على الحضارة القائمة، و لا يزالون ينتهجون بعض المناهج

²⁴ **ثيفيل**: هو ثيوفيل بن توما، أحد المترجمين لأرسطو، من أشهر مؤلفاته: " الأعداد المتحابة في الرياضيات "، " كتاب في المخروط المتكافئ "، " كتاب المختصر في علم الهندسة "، " كتاب الموسيقى "، " كتاب المدخل إلى إقليدس "، " كتاب في أوجاع الكلى و المثاني "... الخ.

²⁵ **ابن المقفع** (عبد الله) (ت 795م): مؤلف عربي فارسي الأصل، قتله والي البصرة بأمر من المنصور و أماته شر ميتة لأنه كان يكرهه نقل من البهلوية إلى العربية كتاب كليلة و دمنة و له الأدب الصغير و الأدب الكبير. **المنجد في اللغة و الأعلام**.

²⁶ **أرسطو طاليس** (ت نحو 548 ق.م): فيلسوف و رياضي يوناني، ولد في ميليتس من عائلة فينيقية، و هو أول الحكماء السبعة لدى الإغريق، اشتهر باكتشافاته الهندسية. قال أن الماء هو المبدأ الأساسي لكل شيء. **المنجد في اللغة و الأعلام**.

²⁷ **أفلاطون** (427م-347م ق.م): من مشاهير فلاسفة اليونان، تلميذ سقراط و معلم أرسطو، درس في بستان أكاديمس في أثينا. أساس فلسفته نظرية الأفكار، مثالها الأسمى فكرة الخير. من مؤلفاته: " الجمهورية "، " السياسي "، " المحاورات "، " كريتون "، " فيدون "، " تيمه "، " الوليمة "، " الشرائع "، **المنجد في اللغة و الأعلام**.

²⁸ أبو عثمان الجاحظ: **كتاب الحيوان**، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام هارون، ط 1، دار الجبل، بيروت: 1996م، ص 375-376.

²⁹ إنعام بيوض: **الترجمة الأدبية مشاكل و حلول**، ط 1، منشورات لانا ب الجزائر، دار الفارابي بيروت: 2003م، ص 23.

الدراسية الأندلسية في معاهدهم إلى الآن، و لا يزالون يردون كل شيء إلى أصله و يعترفون لكل فاضل بفضله))³⁰.

كذلك كانت الحضارة الأندلسية، ذات الامتداد العربي الإسلامي، هدية لأوروبا التي غطت لعدة قرون في سبات عميق من التخلف و الانحطاط و الجمود، حملت معها الآداب و القيم و عصارة الفكر، و قدمتها على طبق من ذهب إلى العقل الأوروبي التائه، الذي أنهكته الصراعات السياسية و الدينية. حضارة أبدعت، في جميع العلوم المعروفة: النجوم و الأفلاك، الهندسة، الرياضيات، الطبيعة، الطب، الموسيقى، المنطق، الفلسفة الإلهية، اللغة و الأدب، التاريخ... الخ. و بطبيعة الحال، دارت دورة الزمن، فبعد أن كانوا العرب في البدء يترجمون عن غيرهم من الأمم، صاحبة الباع الطويل في الرقي و التمدن، أصبح غيرهم يترجم عنهم.

و في المقابل، لا يمكن تجاهل: ((تأثير الترجمة الفعال على اللغة العربية- نفسها- فقد تعرفت من خلالها على فنون و علوم مختلفة لم يكن للغة العربية عهد بها من قبل، إذ أن تطور اللغة العربية الذي قد يجعل من الجاحظ نصف أمي لو بعث اليوم يعود بالدرجة الأولى إلى الترجمة، و لكن هناك قنوات أخرى يسري من خلالها التأثير الأجنبي مع بعض المصطلحات. و هذه القنوات هي التي تسمح بتدفق الكلمات و المصطلحات من أعلى الفجوة التكنولوجية و العلمية إلى أنداها في وقتنا الحاضر انطلاقاً من مقولة ابن خلدون بأن المغلوب يتأثر بالغالب))³¹.

يجمع المستشرقون المنصفون، على أنه بفضل الترجمة إلى اللغة العربية، التي كانت تؤدي بعناية و دقة و حماس، و الشغف الشديد بجمع المخطوطات و الكتب القيمة النادرة، تمت عملية انقباد - تاريخية - لجانب هام من ذلك التراث الإنساني من الضياع، بعد أن انقرضت الحضارات و الثقافات التي أنتجته و كادت أن تنسى³².

و هو رأي الشيخ البشير: ((و قد قامت لغتهم بحفظ هذا الجزء الضروري من الضياع بانتشاله من أيدي الغوائل و بنقله إلى الأواخر عن الأوائل، و بذلك طوقت العالم منة لا يقوم بها الشكر، و لو لا العربية لضاع على العالم خير كثير))³³.

³⁰ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 376.

³¹ إنعام بيوض، المرجع السابق، ص ص 23-24.

³² زيغريد هونيكه، المرجع السابق، ص 280 و ما بعدها.

³³ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 376.

و بطبيعة الحال، لم يضع العرب ذلك التراث في المتاحف و الخزائن - من أجل الزينة و التباهي- بل بعثوه بعثا جديدا، و نقلوه من حال النسيان إلى الحياة من جديد، أعادوا له الحياة ليكون في متناول يد كل من يطلبه، بلغة حية مستعملة يحسنها الجميع:الكاتب، الشاعر ، الفيلسوف، اللغوي ، الفقيه و الإنسان البسيط أيضا³⁴.

2- مغالطة ينبغي كشفها و تصحيحها:نبه الإبراهيمي، إلى ما اعتبرها مسألة يتوجب الكشف عن حقيقتها، حيث كثرت فيها المغالطات التي يطلقها المتعصبون، من أصحاب النوايا السيئة من الغربيين و مقلديهم، فمن كثرتها تحولت إلى حقائق ثابتة و صادقة، رغم أنها كاذبة و واهمة، بل أنها أضحت مسلمات لدى أبناء العرب، الذين تلقوا تعليمهم على أيدي أولئك المتعصبين المروجين لها تلك المسألة هي:((أن العرب ليس لهم فيما ترجموا إلا النقل المجرد، و أنهم لم يزدوا شيئا في التراث الفكري الذي نقلوه، و أن وظيفتهم في هذه الوساطة و وظيفة الناقل الأمين الذي ينقل الشيء كما هو ملفوفا من يد إلى يد)). الغرض منها، هو التمهيد إلى وسم العربي ببلادة الفكر، جمود القريحة، سطحية التفكير، انسداد الشهية العلمية، اعتبارها مغالطة تجانب الحقيقة، لكون أن:

- العرب لما نقلوا علوم الأوائل كما كانوا يسمونها، دفعهم إلى ذلك شغفهم الشديد بالعلم و رغبتهم الملحة فيه.

- أنهم نقلوا ليستقلوا و يستغلوا و لينتفعوا بثمرة ما نقلوا، و لا يتم لهم هذا الاستقلال في العلم إلا بالتمحيص و التصحيح.

-عهد الترجمة، كان عهد اضطراب في هذه العلوم المترجمة، ردت فيه التبعة على المترجمين، ثم انجلت الرغبة و عمل الفكر العربي الوقاد عمله الصحيح فصح أغلاط الفلاسفة و صح نظريات الرياضة، و جاء دور الاجتهاد في هذه العلوم فاستقل الفكر العربي بالفلسفة و كيفها على ذوقه الخاص. و استنبط في هذه العلوم طرائق و أنواعا لم تكن معروفة من قبل للأوائل، و صح العلل و كشف عن الأوهام و انتقد انتقاد المستقل. و ما كان الفارابي³⁵ و ابن سينا³⁶ و أبو

³⁴ زيغريد هونيكه، المرجع السابق، ص383.

³⁵ **الفارابي**(أبو نصر محمد)(ت950م):من أعظم فلاسفة العرب، ولد في فاراب، و توفي بدمشق، درس في بغداد و حران و أقام في بلاط سيف الدولة بحلب.كان متضلعا من المنطق و الرياضيات و الموسيقى،و لقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو.من مؤلفاته الجمع بين رأيي الحكيمين حاول فيه التوفيق بين أفلاطون و أرسطو، التوطئة في المنطق، السياسة المدنية، آراء أهل المدينة الفاضلة، رسالة في العقل، رسالة الفصوص، إحصاء العلوم و التعريف بأغراضها، كتاب الموسيقى الكبير، كتاب الألفاظ، كتاب الحروف المنجد في اللغة و الأعلام.

³⁶ **ابن سينا**(أبو علي)(980م-1037م):فيلسوف و طبيب و عالم من كبار فلاسفة الإسلام و أطبايهم، عرف بالشيخ الرئيس.ولد في أفشنة قرب بخارى و توفي بهمدان.تعمق في درس فلسفة أرسطو و تأثر بالأفلاطونية المستحدثة،قال بفيض

سليمان المنطقي³⁷ في المشاركة و لا ابن باجة³⁸ و ابن طفيل³⁹ و ابن برجان⁴⁰ و ابن رشد⁴¹ و ابن هذيل⁴² في الأندلسيين، بالمقلدين في علوم الأوائل⁴³.

يشاطره في هذه القناعة، الفيلسوف الجزائري مالك ابن نبي، الذي ذهب إلى القول بأن: ((الفكر العربي و اللغة العربية، هما اللذان التقطتا التراث اليوناني و نقلاه و طوراه تطويرا ملحوظا، إلى أوروبا في القرون الوسطى))⁴⁴.

الأمر الذي يعني، أن العرب نقلوا تراث الحضارات السابقة لهم، بوعي و برغبة في تمحيصه و دراسته، تمهيدا لتطويره و تقديمه للإنسانية في ثوب يحمل البصمة العربية الإسلامية، و هو الذي حصل خلافا لما يتم ترويجه هنا و هنالك، في الأوساط الفكرية و العلمية و الأكاديمية، من أن العرب لعبوا دور ساعي البريد فحسب.

و حتى، إذا سلمنا بصحة الرأي السابق، هل من المنطقي أن تتمكن اللغة العربية، من استيعاب تراث الآخرين الراقي بالمقارنة مع الوضع الحضاري العربي قبل ذلك، و يعجز الفكر العربي الإسلامي عن تطوير المضامين الفكرية لذلك التراث؟، هذا أولا.

العالم عن الله، كما فعل أفلاطون له ميول صوفية عميقة برزت في الحكمة المشرقية و هي عبارة عن فلسفته الشخصية. من مؤلفاته المطبوعة: القانون في الطب، الشفاء، النجاة، الإشارات و التنبهات، الحدود في الفلسفة و المنطق. المنجد في اللغة و الأعلام.

³⁷ أبو سليمان المنطقي (محمد) (ت نحو 985م): فيلسوف عربي، تلميذ يحيى بن عدي، قربه عضد الدولة. نقل أبو حيان التوحيدي كثيرا من أقواله في " المقابسات " و " الإمتاع و الموائسة " له " صوان الحكمة " و هو تاريخ الفلسفة اليونانية و الإسلامية. و عنه أخذ الشهرستاني في " الملل و النحل ". المنجد في اللغة و الأعلام.

³⁸ **ابن باجة** (أبو بكر محمد بن الصائغ) (ت 1138م)، فيلسوف عربي شهير، ولد في سرقسطة و توفي بفاس مسموما، شرح أرسطو و تأثر به ابن رشد. من آثاره " تديبير المتوحد " و " رسالة الوداع ". امتاز بمعارفه الطبية و الفلكية و الموسيقية. المنجد في اللغة و الأعلام.

³⁹ **ابن طفيل** (أبو بكر محمد) (1100م-1185م)، عالم موسيقي أندلسي، و فيلسوف، اهتم بالطب و الرياضيات و الفلك و الشعر، له قصة **حي بن يقظان** حاول التوفيق فيها بين الفلسفة و الدين. المنجد في اللغة و الأعلام.

⁴⁰ **ابن برجان** (ت 1141م): متصوف من أهل الأندلس، هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمان بن محمد اللخمي الإشبيلي، من كتبه: " شرح أسماء الله الحسنى "، و كتاب في تفسير القرآن الكريم الذي لم يكمله. خير الدين الزركلي: **الأعلام**.

⁴¹ **ابن رشد** (أبو الوليد محمد) (1126م-1198م)، فيلسوف عربي ولد في قرطبة و توفي في مراكش، درس علم الكلام و الفقه و الشعر و الطب و الرياضيات و الفلك و الفلسفة. قدمه ابن طفيل لأبي يعقوب يوسف خليفة الموحدين 1182م. فينه طبيبا له ثم قاضيا في قرطبة. حاول التوفيق بين الشريعة و الفلسفة في **فصل المقال بين الحكمة و الشريعة من الاتصال**، كما دافع عن الفلسفة ضد الغزالي في كتابه تهافت التهافت. له شروح كثيرة على أرسطو، و قد سماه فلاسفة الغرب **الشارح**. المنجد في اللغة و الأعلام.

⁴² **ابن هذيل**: هو أبو بكر يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل بن الحكم التميمي القرطبي، الذي ولد بقرطبة سنة 305هـ، تميز بثقافة لغوية أدبية عالية يعد ثالث ثلاثة مشاهير عصره: الغزالي، ابن عبد ربه، ابن هذيل، عرف بعلو نزلته في الشعر. للمزيد أنظر فوزي ياسين: **شعراء أندلسيون منسيون**.

⁴³ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 377-378.

⁴⁴ مالك بن نبي: **من أجل التغيير**، ط 1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر العربي، سوريا، 1995م، ص 61.

و ثانيا، إذا كان العرب مجردة نقلة أمناء للبضائع الفكرية و الحضارية الفارسية و اليونانية، دون دراية بما بداخله، فكيف استطاعوا انجاز حضارة وصفت بكونها رائدة في الإبداع التقني، و نموذجية في جمعها بين الماديات و الروحيات، تلكم الخاصية المفقودة في الحضارات السالفة الذكر، و الحضارة الغربية الحالية، التي تسير بقدم واحدة كما يقول المفكرون و المهتمون بالهموم الحضارية؟.

الحضارة ليست لها جنسية، و إنما هي حصيلة تراكمات لسعي الإنسان نحو حياة أفضل، على المستويين الروحي و المادي، و مثلما أخذت الحضارة العربية الإسلامية عن من سبقها من الحضارات، أخذت عنها الحضارة الغربية ما بنت عليه مجدها الحالي، و هو الأمر ذاته الذي تقوم به الآن الأمة الصينية المرشحة لأخذ زمام القيادة من الأمم الغربية. لأن الغاية في النهاية هي خدمة الإنسان، بغض النظر عن عرقه أو عقيدته أو جغرافيته أو زمانه.

و هو ما عبر عنه الإبراهيمي، بقوله: ((إن العربية لم تخدم مدينة خاصة بأمة، و إنما خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدينة الخير العام و النفع العام، و لم تخدم علما خاصا بأمة و إنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروع النافعة و من يستقرئ هذه اللغة لعلم الطب وحده يتبين مقدار ما أفاءت هذه اللغة على البشرية من خير و نفع))⁴⁵. فاللغة هي الفكر، و يستحيل أن يتغير هذا بغير تلك، يقول الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه: تجديد الفكر العربي⁴⁶.

و قياسا عليه، نقول أن اللغة العربية مثلما كانت أداة لنقل المنتجات الفكرية و الحضارية السابقة، كانت أيضا وسيلة لإعمال آلة العقل و الإبداع فيها، بمعنى أنها أثبتت كفاءتها في النقل و الإبداع معا فإذا كانت اللغة قوية، كان الفكر كذلك، و العكس صحيح.

وصف الدكتور علي حسن الخربوطلي، في كتابه: العرب في أوروبا، الحضارة الرومانية أنها: ((كانت حضارة فتح و استعمار و بناء... و قد قامت للرومان أنفسهم، و ليست أممية و لا عالمية، بل حضارة أنانية و طغيان ترعرعت في أحضان غطرسة الأباطرة و القواد؛ و لذلك وأدوها)). و أرجع علة عجز الحضارة اليونانية بفلسفتها، عن الوصول إلى أوروبا الوسطى، و عجز شعوب القارة ككل عن هضمها، إلى عقليتها المتخلفة: ((أفسدتها نكرة فروسية العصور الوسطى غير القادرة على الفهم و الاستيعاب)). و وصل إلى أن سبب تقبل أوروبا للحضارة

⁴⁵ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص378.

⁴⁶ زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، ط7، دار الشروق، بيروت، القاهرة: 1982م، ص205.

العربية، كان بفعل واقعية و مرونة هذه الأخيرة، التي تناسب الشعوب الأوروبية، على اختلاف بلدانها و تنوعها العرقي و الثقافي⁴⁷.

كما استحضر، آراء العديد من المفكرين العرب و الغربيين و المستشرقين، التي صبت كلها، في نفي ما اعتبرها الإبراهيمي مغالطات عارية من الصحة، و إثبات أستاذية الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الغربية، و دورها الأساسي في تكوين العقل الأوروبي، و دفعه نحو البحث و الاكتشاف.

3- حاضر و مستقبل اللغة العربية؟: عاصر الإبراهيمي، ما سمي بحركة النهضة العربية، فكان شاهدا على التحديات السياسية و الأسئلة الفكرية و الإشكالات الثقافية، التي واجهت المفكرين و المصلحين و المثقفين العرب، في تلك المرحلة الدقيقة جدا من التاريخ العربي المعاصر. فكان صوتا هادرا و قلما سيالا و مناقلا نشطا، في سبيل القضايا العربية المعقدة و المتشعبة، التي تراكمت مع الأزمنة، لتطفو دفعة واحدة، زادهما تعقيدا و تشعبا الهجمة الاستعمارية الغربية، التي أحالت البلاد العربية، إلى مستعمرات تقاسمتها الدول الغربية الكبرى فيما بينها، التي عملت على تآزيم وضعها الثقافي المتأزم أصلا.

فكانت اللغة، من أكثر أسس القومية العربية استهدافا، و هو ما تنبه إليه مفكرو النهضة، لذلك كان الرهان على بعثها رهانا رابحا، للوصول إلى النهضة الشاملة. فكان الغرض الصريح من وراء ذلك، ليس إحياءها لأنها كانت موجودة أصلا، إنما جعلها مؤهلة لتواكب المستجدات العلمية و التقنية المتسارعة.

البعث سمي العملية، تطويرا أو تحسينا مثل البشير الإبراهيمي، و هو ما سيأتي الحديث عنه في هذا المطلب. و البعض الآخر، نادى بأن تكون ثورة لغوية، و في كلتا الحالتين الهدف ظل واحدا.

سبقت الثورة الفرنسية، مفكري النهضة العربية، في إدراك أهمية – الاستثمار – في اللغة، حيث لم تمضي أربعة أعوام عليها، حتى سارعت السلطة القائمة في فرنسا، إلى حل ما كان هنالك من مجاميع لغوية، تدفعها الرغبة في إعادة بناءها، وفقا لخطة جديدة، تنسجم مع روح الثورة. فصبت البحوث التي قدمت منذ البداية، إلى التأكيد على: ((أن اللغة ليست لمجرد التعبير

⁴⁷ عبد التواب يوسف: الحضارة الإسلامية بأقلام غربية، ط 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة: 1994م، ص 18.

عن أفكار تكونت، بل هي جزء لا يتجزأ من عملية التفكير نفسها...- وأن- تطوير العلوم مرهون بتطوير اللغة⁴⁸.

لم ينكر الشيخ البشير، أن النهضة اللغوية التي شهدتها المشرق العربي حينئذ- بالرغم من النتائج المحققة - أنها لا زالت بعيدة عن المستوى المطلوب و الطموحات المنتظرة، فقد ظهر النقص الواضح في المصطلحات العلمية و الصناعية الضرورية فأرجع السبب في ذلك، إلى الاختلافات الحاصلة بين القادة النهضة، حول السبيل لمعالجة المشكلة، هل يكون بالبحث عن مصطلحات عربية أصيلة، أو باستعارة تلك المصطلحات من لغات العلم الأجنبية؟.

و يعتقد أن الحل، كان يمكن أن يكون ميسرا: ((لو كانت الكتب العلمية و الفنية التي كتبها أسلافنا موجودة بين أيدينا و لم تغلها غوائل الدهر لوجدنا فيها من هذه المصطلحات ما يفي بحاجتنا أو يقارب، و لكنها - و يا للأسف - ضاعت علينا بضياعها ثروة لا تقوم بمال)). و يضرب مثالا عن ذلك، بكتاب الحيوان لأبي حنيفة⁴⁹، الذي سافر لأجل اقتنائه الكثير من الشغوفين، و أنفقوا في سبيله الثروات الطائلة، و تنافس هواة جمع الكتب في الحصول عليه في كل أنحاء العالم دون جدوى⁵⁰.

نستخلص من ذلك، أنه ممن يرون أن التراث اللغوي العربي، قادر إلى حد كبير على تلبية حاجة الأمة العربية، من المصطلحات العلمية و الصناعية، في تلك الفترة، لو لم يجد طريقه إلى الضياع، ما يعفيها من عناء البحث عنها، لدى الأمم المتقدمة المعاصرة لها.

الحجة التي يستند إليها، في رأيه هذا، هي أن اللغة العربية حققت في الماضي، ما لم يكن في وسع لغة أخرى أن تنجزه و هو:

- دورها- الخارق- في تقارب تفكير، تشابه عقليات، تمازج أذواق، توحيد مشارب، الأمم التي دخلت في ركاب الإسلام.

⁴⁸ للمزيد حول تجربة السلطة الفرنسية في الميدان اللغوي بعد ثورة 1798م، أنظر زكي نجيب محمود، المرجع السابق، ص 207 و ما بعدها.

⁴⁹ أبو حنيفة (نعمان بن ثابت) (ت 150هـ): إمام المذهب الحنفي و أحد الأئمة الأربعة المجتهدين عند السنة، و لد في الكوفة و درس فيها و أفتى. استدعاه المنصور لتولي القضاء في بغداد فرفض فحبسه إلى أن مات. من آثاره: "الفقه الأكبر"، "مسند أبي حنيفة" .. و هو أول من فصل الفقه إلى أبواب و أقسام، و صاحب الاجتهاد في الفقه و الفرائض بالقياس و الرأي. روى عنه فريق من المجتهدين و نشروا مذهبه في عشرات المؤلفات. المنجد في اللغة و الأعلام.⁵⁰ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 379.

- نجاحها - الباهر - في فتح آفاق جديدة لم تعرفها تلك الأمم من قبل، التي انضمت إلى الإسلام و هي: ((متفاوتة الدرجات في الانفعالات النفسية و أنماط التفكير، متفاوتة في الإدراك و الذكاء، متفاوتة في القابلية و الاستعداد، متفاوتة في التصوير و التخيل)).

- دفعها بكل ما لديها من قوة و سلطان: ((إلى التفكير و التعقل على منهج متقارب)) فهي: ((التي قاربت بين الفكر الفارسي المنفعل القلق و الفكر البربري الرصين الهادئ ثم هيات لكل فكر قابليته)).

- تحفيزها للأفكار الخادمة، على التحرك، و جعلها أكثر قوة⁵¹.

- الثروة الهائلة، من المصطلحات العلمية و الفنية، التي أمدت بها علماء الإسلام، التي تجعل أي لغة من اللغات في العالم، مجبرة على الاستعانة بها و الاستعارة منها.

- إنتاجها لعلماء: ((بحثوا في كل علم و بحثوا في كل فن و ملأوا الدنيا مؤلفات و دواوين، و من عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري⁵² في النبات و كتاب أبي عبيدة⁵³ في الخيل و كتاب الهمداني⁵⁴ في تخطيط جزيرة العرب و كتاب الجاحظ في الحيوان و كتب الأئمة في الطب و النجوم و الإبل، رأى العجب العجاب من اتساع هذه اللغة و غزارة مادتها، و علم مقدار أفضالها على الأمة العربية)).

- الإنتاج الأدبي، المتنوع و الراقى، الذي أنتجته: ((كما أن من يقرأ شعر الشعراء النفسيين من الفرس بهذه اللغة و شعر الشعراء الوصافين من الأندلس يتجلى له أي إفضال أفضالته العربية على تلك القرائح الوقادة التي وجدت في العربية فيضا لا ينقطع مدده، و أضافته إلى فيض الاستعداد. و ما أمتن الإنتاج الأدبي إذا كان يصدر عن اتساع في اللغة و اتساع في الخيال)).⁵⁵

- صناعتها لحضارة عظيمة، مع استعارة مفردات قليلة من غيرها، على خلاف الحضارة الغربية المعاصرة: ((و من العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها و تلوينها

⁵¹ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص378.

⁵² الدينوري (أبو حنيفة أحمد) (ت895م): عالم و مؤرخ عربي، من آثاره: "الأخبار الطوال" في التاريخ، "النبات" في علم الطبيعة. المنجد في اللغة و الأعلام.

⁵³ أبو عبيدة (معمر بن المثنى) (728م-823م): عالم باللغة و الشعر من أهل البصرة، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء و يونس بن حبيب و عنه أخذ أبو عبيد ابن سلام و أبو نواس. جمع الكثير من أخبار العرب و أنسابهم. كان خارجيا شعوبيا و كتابه المثالب يطعن بأنساب العرب. من كتبه: مجاز القرآن، "كتاب الخيل"، "نقائض جرير و الفرزدق". المنجد في اللغة و الأعلام.

⁵⁴ الهمداني (ابن الحائك الحسن) (ت سنة 945م): مؤرخ و شاعر يماني عالم بالأنساب له كتاب "الإكليل" في أنساب حمير و ملوكها، و "صفة جزيرة العرب" و "ديوان شعر". المنجد في اللغة و الأعلام.

⁵⁵ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر نفسه، ص379.

عدة لغات متلفة الأصول، و لم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان و لم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات))⁵⁶.

يصطدم موقف الإبراهيمي هذا، مع مواقف بعض المفكرين العرب المعاصرين، الذين يرون أن اللغة التي كتب بها التراث الأدبي العربي، لغة خيالية لا تمت إلى الواقع بشيء، و منهم الدكتور زكي نجيب محمود، الذي أفصح عن ذلك بصراحة في قوله: ((لم تكن الفصحى في تراثنا الأدبي أداة للاتصال بمشكلات العالم الأرضي، و لا وسيلة للثقافة المتصلة بحياة الناس و أزمااتهم، بل كانت مجالا للفن الذي يهوم في السماء أو ما يشبه السماء... اللغة عندنا نغم يطير بنا عن أرض الواقع و يصعد بنا إلى اللانهائي المطلق، و إن شئت اختر لنفسك أي كتاب شئت من عيون تراثنا الأدبي، و أقرأ مقدمة المؤلف، و الأرجح جدا أن تجد نفسك في أحبولة عجيبة من ألفاظ و تراكيب، خيوطها سحرية تصرفك عما يراد بها من معنى، لتعكف عن النغم و الجرس...))⁵⁷.

و هو في الواقع، لا يطلب استبدال هذه اللغة الموروثة بلغة أرقى منها، لكنه يشدد على أن تعرف ثورة حقيقية، تمهد لنا الطريق إلى ولوج مجتمعات العلم و المعرفة: ((و عندنا أن الأمل المنشود هو أن تتطور اللغة بحيث تحقق شرطين: أن تحافظ على عبقريتها أولا، و أن تكون أداة للتوصيل لا مجرد وسيلة لترنم المترنمين، ثانيا، و بغير هذه الثورة في استخدامنا للغة فلا رجاء في أن تحقق لنا الوسيلة الأولية التي ندخل بها مع سائر الناس عصر التفكير العلمي الذي يحل المشكلات))⁵⁸.

بالمقارنة، يظهر الاختلاف الواضح بين الموقفين؛ الإبراهيمي يريد تطويرا طفيفا إن جاز التعبير، بل و يفترض الاستغناء عنه، لو وضعنا أيدينا على أهم كتب التراث الضائع. في حين ينادي زكي نجيب محمود، إلى ثورة لغوية، تخرج اللغة العربية من عالمها السحري الجميل، إلى عالم الواقع بتحدياته المتشعبة، لتصبح مؤهلة فعلا لمسايرة قطار التفكير العلمي.

و مهما يكن، فإن اللغة العربية، التي التقطت الفكر اليوناني و طورته و نقلته إلى أوروبا، في استطاعتها أن تصبو لتكون لغة عالمية: ((تعبير عن الفكر التقني لأي حضارة كانت، كما كانت تفعل منذ زمن بعيد في قرطبة و بغداد، إبان العصور الذهبية)). على حد تعبير الفيلسوف مالك ابن نبي، الذي يتساءل: ((أليس شيئا معبرا أن تكون اللغات الأوروبية، و على الأخص

⁵⁶ المصدر نفسه، ص 374.

⁵⁷ زكي نجيب محمود، المرجع السابق، ص ص 219-220.

⁵⁸ المرجع نفسه، ص 223.

اللغة الفرنسية، قد أخذت عن اللغة العربية التقنية التي كانت الأساس اللساني لانطلاقة العلوم الحديثة؟ أليس شيئاً معبراً، أن تكون كلمة chiffres (الأصل صفر و معناها العدد) ذاتها (من أصل عربي) في كل اللغات الأوروبية؟⁵⁹.

و حصر الحل، فيما سماه بالقفزة الثانية: ((مما لا شك فيه أنه يتحتم على العرب، أن يقوموا بالقفزة ذاتها التي حدثت منذ ثلاثة عشر قرناً؛ لكي يترجموا من جديد الفكر العلمي، وحتى الفكر السياسي. هذه دعوة لا أعتقد أن يمكن تجاهلها في رأيي. فهي تمنح مسألة التعريب بعداً تاريخياً))⁶⁰.

في الأخير، اعترف الشيخ البشير، أن ما أشار إليه بشأن موضوع فضل اللغة العربية على العلم و المدنية، هو في واقع الحال مجرد عرض بسيط، لأنه: ((موضوع طريف يحتاج على بحث عميق و دراسة مستفيضة، و يتطلب جهداً قوياً و وقتاً متسعاً. لو أن باحثاً عربياً يساعده وقته و حاله على استقراء هذا الموضوع لكتب فيه المجلدات، و لبث في ناشئتنا روحاً جديدة من الحماس للغتهم و التعلق بها و الكد في تحصيلها و التعاضم بجمالها، و لكان ذلك مقولاً لروح النزهد الخبيثة التي لا بست عقولهم))⁶¹.

إن المطلع على الهجمة الشرسة، التي تعرضت لها اللغة العربية، في الزمن الذي عاش فيه البشير الإبراهيمي، سيدرك بدون شك، حماسه الكبير في الدفاع عن أهليتها و كفاءتها، و حرصه الشديد على أن خط الدفاع الأول عنها، يبدأ بتكوين جيل عربي مطلع على ماضيها المزهرة، و اع بواقعها، مؤمن بعطائها المتجدد في كل الأوقات ذلك هو الرهان، الذي لا يرى الرجل بديلاً عنه، بحكم فلسفته في الإصلاح و النهضة، التي تعتمد بالدرجة الأولى على التربية السليمة، و التنشئة الاجتماعية الجيدة للفرد.

و لعله من الإنصاف، أن نذكر بالجهود الجبارة التي بذلها في هذا المجال، برفقة زملائه في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1920م-1956م) لإنقاذ اللغة العربية، التي كادت أن تندثر في الجزائر، بفعل السياسة الاستعمارية الفرنسية، التي سعت بكافة الطرق و الوسائل إلى القضاء عليها قضاء تاماً. فكادت أن تنجح، لو لا تصدي أولئك العلماء المناضلين و تضحياتهم، الذين أعادوا المياه إلى مجاريها الطبيعية، و حققوا إنجازاً هو أقرب إلى المعجزة منه إلى الحقيقة، لضعف الحال من ناحية، و لجبروت المحتل و تصميمه على إلحاق البلاد ثقافياً

⁵⁹ مالك ابن نبي، المرجع السابق، ص ص 61-62.

⁶⁰ مالك ابن نبي، المرجع السابق، ص 62.

⁶¹ محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 379.

بالفضاء اللاتيني، مهما كان الثمن. غاية لو تمكن من الوصول إليها، لأصبح جيلنا الحالي، جيلا فرنسيا لاتينيا بامتياز، و تحولت خارطة البلاد إلى جزء من خارطة القارة الأوروبية، و ليس الوطن العربي. و لذلك وجب التذكير، بتلك النضالات و التضحيات الجسيمة.

4- أخذ العبرة من المستعربين من علماء المشرقيات: لم يخفي الإبراهيمي إعجابه مما سماه المستعربون من علماء المشرقيات، الذين تحدوا الصعاب و كابدوا المشاق، من أجل تعلم اللغة العربية. و هم عنده فريقان، يتفقان في الاعتقاد بأنها لغة جميلة و الاعتراف بأفضلها على العلم والمدنية، و يختلفان في الدواعي و البواعث في معاملتها.

الفريق الأول، ينظر إليها نظرة الاستخفاف و المصالحة: ((فينادي بموتها و يعمل على موتها و يزهد فيها الناس و يتجنى عليها و ينحلها العيوب))⁶².

هذا برأيه، مثال سيء لا ينبغي الاحتذاء به، لأنه يتعلم لكي يساعد على قبرها، لأسباب قد تكون نفسية أو شخصية أو أيديولوجية، لمح إليها و لم يفصل فيها.

أما الفريق الثاني، فينظر إلى اللغة العربية نظرة علمية مجردة، فيقبل على تعلمها بروح مخلص، و يشجع غيره على تعلمها، و لا يتوانى في الإشادة بذكرها في المحافل و المؤلفات. أسدى خدمات جليلة للغة العربية، يستحق عليها التقدير و الشكر العظيم، من قبل أبنائها: ((فكم كتبوا عنها مؤلفات و كم عقدوا للبحث عن دقائقها مؤتمرات، و كم طبعوا من أسفارها القيمة في اللغة و الأدب و التاريخ و العلوم، و لو لم يكن من فضلهم عليها إلا إحياء أمهات علمية عجزنا نحن عن إحيائها لكان ذلك موجبا لعرفان جميلهم، و إذا كان فضل العربية عليهم في القديم عظيما، فقد قابلوا الفضل بفضل و لهم الشكر على كل حال)).

و في هذا، يتساءل الشيخ البشير، ماذا صنعنا نحن و أبناءنا، نظير ما قام به هذا الأجنبي إزاء اللغة العربية، التي عرف فضلها، فاجتهد في إحياء ما استطاع من آثارها، و تشجيع بني جلدته، على تعلمها و الاستفادة من ذخائرها، و معه حكومته التي- تعينه بكل ما يلزم- و من ذلك ما تجمع له من آلاف الأسفار القيمة لهذه اللغة؟.

و يجيب: ((الحق أن ما صنعناه نحن لهذه الأم ضئيل، و أن ما أنفقناه في سبيلها قليل، و لكن النية في خدمتها صحيحة و الرغبة في تعلمها ملحة))⁶³. و هو تقييم، يحمل أربعة عناصر مهمة:

⁶² محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 380-381.
⁶³ المصدر نفسه، ص 380.

- الإقرار بالجهود، التي بذلت في هذا الصدد، حيث لا يمكن تجاهلها على مستوى كافة البلاد العربية دون استثناء، و لو بدرجات متفاوتة، بحكم ظروفها وإمكاناتها.

- الدعوة إلى المزيد، لأنه مشروع ثقافي حضاري إنساني بامتياز، يستوجب أن نستثمر فيه كل ما لدينا من طاقات بشرية و مادية مكلف، لكنه مضمون النتائج، للخروج من عنق زجاجة التخلف و التبعية بكل أشكالها.

- وجود مؤشر النية الخالصة، و هو الأهم في العملية كلها، شريطة أن تشمل المستويات الفاعلة و المؤثرة في المجتمع، و نقصد بها أصحاب القرار السياسي و المالي، بالإضافة إلى دور النخب: المفكرة، العلمية، المبدعة، المثقفة، المتعلمة، المؤمنة بعقيدة اللغة العربية، و حتمية عودتها القوية إلى كل مجالات الحياة العربية.

- وجود مؤشر الرغبة، عند مختلف الفئات و الشرائح العربية، لإنجاح المشروع خاصة في جانبه العلمي، لأن حياة اللغات أو موتها، أصبحت في عصرنا الحالي، لا تقاس بعدد المتكلمين بها، و إنما بحجم حضورها في فضاء العلوم و التقنيات، و الإبداع بصورة عامة.

خلاصة: هذا جانب، من دفاع الشيخ البشير الإبراهيمي، عن اللغة العربية، التي اعتبر التفريط فيها، عملاً لا يختلف عن الأعمال المشينة، التي لا تشرف أصحابها و تسيء إلى الأمة و الأوطان، بل و تهدد حياتها و كيانها و مستقبلها. و بالنظر إلى ما جاء به، نستخلص ما يلي:

- ظهور الإبراهيمي، من خلال بعض الفقرات التي اقتبسناها، أو في آثاره بصورة عامة، مالكا لناصرية اللغة العربية الأصيلة، التي كادت أن تندثر في زمانه، و قد نال التقدير و الإعجاب من كل من استمع إليه، من كبار أساطين اللغة و الأدب العربيين، الذين لم يترددوا في تلقيه بفارس البيان العربي.

- أن تمسكه الشديد، بحتمية أن تكون اللغة العربية، هي اللغة الشعبية و الرسمية، و الدبلوماسية و العلمية و التقنية، في الدول العربية و حتى الإسلامية، ليس بتأثير التعصب الذي قد يفهمه البعض، أو بفعل تكوينه اللغوي الأحادي، حيث أنه لم يكن يتقن سوى اللغة العربية. و إنما لأنه كان على قناعة تامة، ترتقي إلى مستوى الاعتزاز و الفخر و التقديس، و هي أنها لغة تملك من الخصائص، القوة، القدرة، المؤهلات، الجمال، المرونة، السلاسة، اللمسة الإبداعية، ما لا تملكه أي لغة أخرى في الماضي أو الحاضر.

- فهو برأينا، من دعاة- الاستقلال اللغوي- إن جاز التعبير، الذي يعد الخطوة الأساسية للوصول إلى الاستقلال الثقافي، الذي: ((لا يعني كراهية الثقافات الأجنبية، و لا يتضمن قطع العلاقات مع الثقافات الأخرى، و إنما يعني ثقافة البلاد و توجيهها حسب ما تقتضيه مصالح الأمة و نزعاتها الخاصة، لا حسب ما يطلبه و يفرضه الأجنبي، خدمة لمصالحه و ثقافته))⁶⁴.

- رغم الثقة و التفاؤل الكبيرين، اللذان أبداهما إزاء مستقبل اللغة العربية، نستشعر في نفسه قلقا و خشية مستبطنين، لا شك أن مصدرهما الأجواء السياسية و الفكرية و الثقافية، التي كانت تعيشها الأمة آنذاك، و ساهمت في فتح نقاشات حادة، حول العديد من القضايا الأساسية، و منها المسألة اللغوية، حيث أجهر البعض و دون حرج، بوضع اللغة العربية في المتحف، في حين طالب البعض الآخر باستبدالها باللغات المحلية. ناهيك عن الهجمات القاسية، التي تعرضت لها من طرف فئة لا بأس بها، من المستشرقين و اللغويين و الكتاب، الذين لم يخفوا نواياهم في إقبارها.

- على خلاف بعض أنصار اللغة العربية، من معاصريه، بدا الإبراهيمي غير مهتم كثيرا، بإخضاع اللغة العربية لثورة كبرى، تنقلها إلى مصاف اللغات الحية، ربما لا اعتقاده أن المسافة بينها و بين تلك اللغات، بالإمكان تداركها في فترة زمنية قصيرة، شرط توفر الإرادة الصادقة. فالضعف في تقديره، كامن في العرب المعاصرين، و ليس في لغتهم، التي حافظت على قدرتها التنافسية، حتى في عصور الانحطاط.

- في واقع الأمر، إن ما أشار إليه، من خصائص متميزة للغة العربية، عامل مساعد و لكنه غير كاف، لكي تنال مكانتها الحقيقية بين اللغات العالمية، حيث يتوجب على العرب أن يخوضوا معركة الخروج من التخلف، بطرق أبواب التقدم العلمي و التكنولوجي من طريقها الصحيح، التي تجعلهم منتجين لا مستهلكين، مؤثرين لا متأثرين، فاعلين لا متفاعلين.

- تبدو الحاجة ماسة اليوم، إلى الاستئناس بحماس جيل الإبراهيمي، في الدفاع عن اللغة العربية، في ظل التحديات الجديدة، التي فرضتها ما تسمى بالعولمة اللغوية، التي أصبحت تهدد اللغات في البيوت و الشوارع و الأسواق الشعبية، و ليس في مراكز العلم و البحث، و ساحات السياسة و الاقتصاد و المال و الأعمال و الدبلوماسية فحسب.

⁶⁴ حول الموضوع أنظر: أبو خلدون ساطع الحصري: حول الوحدة الثقافية العربية، سلسلة التراث القومي (الأعمال القومية لساطع الحصري)، مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة خاصة، بيروت: 1985م، ص 43 و ما بعدها.

